مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنقذنا بنور العلم من ظلمات الجهالة ، وهدانا بالاستبصار به عن الوقوع في عماية الضلالة ، ونصب لنا من شريعة محمد ﷺ أعلى علم وأوضح دلالة ، وكان ذلك أفضل ما من به من النعم الجزيلة ، والمنح الجليلة ، وأناله ، فلقد كنا قبل شروق هذا النور نخبط خبط العشواء ، وتجري عقولنا في اقتناص مصالحنا على غير السواء ؛ لضعفها عن حمل هذه الأعباء ، ومشاركة عاجلات الأهواء ، على ميدان النفس التي هي بين المنقلبين مدار الأسواء ، فنضع السموم على الأدواء مواضع الدواء ، طالبين للشفاء ، كالقابض على الماء ، ولا زلنا نسبح بينهما في بحر الوهم فنهيم ، ونسرح من جهلنا بالدليل في ليل بهيم ، ونستنتج القياس العقيم ، ونطلب آثار الصحة من الجسم السقيم ، ونمشي إكبابا على الوجوه ، ونظن أنا نمشي على الصراط المستقيم ؛ حتى ظهر محض الإجبار في عين الأقدار ، وارتفعت حقيقة أيدي الاضطرار إلى الواحد القهار ، وتوجهت إليه أطماع أهل الافتقار ، لما صح من ألسنة الأحوال صدق الإقرار ، وثبت في مكتسبات الأفعال حكم الاضطرار ، فتداركنا الرب الكريم بلطفه العظيم ، ومن علينا البر الرحيم بعطفه العميم؛ إذ لم نستطع من دونه حيلًا ، ولم نهتد بأنفسنا سبلًا ، بأن جعل العذر مقبولا ، والعفو عن الزلات قبل بعث الرسالات مأمولًا ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فبعث الأنبياء عليهم السلام في الأمم ، كل بلسان قومه من عرب أو عجم ، ليبينوا لهم طريق الحق من أمم ، ويأخذوا بحجزهم عن موارد جهنم ، وخصنا معشر الآخرين السابقين ، بلبنة تمامهم ،

ومسك ختامهم؛ محمد بن عبد الله ﷺ، الذي هو النعمة المسداة، والرحمة المهداة، والحكمة البالغة الأمية، والنخبة الطاهرة الهاشمية، أرسله إلينا شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنزل عليه كتابه العربي المبين، الفارق بين الشك واليقين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ووضع بيانه الشافي وإيضاحه الكافي في كفه، وطيبه بطيب ثنائه وعرفه بعرفه؛ إذ جعل أخلاقه وشمائله جملة نعته، وكلي وصفه، فصار عليه السلام مبينا بقوله وإقراره وفعله وكفه؛ فوضح النهار لذي عينين، وتبين الرشد من الغي، شمسا من غير سحاب ولا غين.

فنحمده سبحانه والحمد نعمة منه مستفادة، ونشكر له والشكر أول الزيادة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق المبين، خالق الخلق أجمعين، وباسط الرزق للمطيعين والعاصين، بسطا يقتضيه العدل والإحسان، والفضل والامتنان، جاريا على حكم الضمان.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

كل ذلك ليتفرغوا لأداء الأمانة التي عرضت عليهم عرضا، فلما تحملوها على حكم الجزاء؛ حملوها فرضا، ويا ليتهم اقتصروا على الإشفاق والإباية، وتأملوا في البداية خطر النهاية، لكنهم لم يخطر لهم خطرها على بال، كما خطر

للسماوات والأرض والجبال ، فلذلك سمي الإنسان ظلومًا جهولًا ، وكان أمر الله مفعولًا ، دل على هذه الجملة المستبانة شاهد قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ .

فسبحان من أجرى الأمور بحكمته وتقديره؛ على وفق علمه وقضائه ومقاديره ؛ لتقوم الحجة على العباد فيما يعملون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، الصادق الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، بملة حنيفية ، وشرعة الحاكمين بها حفية ، ينطق بلسان التيسير بيانها ، ويعرف أن الرفق خاصيتها والسماح شأنها ، فهي تحمل الجماء الغفير ضعيفًا وقويًا ، وتهدي الكافة فهيمًا وغبيًا ، وتدعوهم بنداء مشترك دانيًا وقصيًا ، وترفق بجميع المكلفين مطيعًا وعصيًا ، وتقودهم بخزائمهم منقادًا وأبيًا ، وتسوي بينهم بحكم العدل شريفًا ودنيًا ، وتبوئ حاملها في الدنيا والآخرة مكانًا عليًا ، وتدرج النبوءة بين جنبيه وإن لم يكن نبيًا ، وتلبس المتصف بها ملبسًا سنيًا ، حتى يكون لله وليًا ، فما أغنى من والاها وإن كان فقيرًا ، وما أفقر من عاداها وإن كان غنيًا .

فلم يزل عليه السلام يدعو بها وإليها ، ويبث للثقلين ما لديها ، ويناضل ببراهينها عليها ، ويحمي بقواطعها جانبيها ، بالغ الغاية في البيان ، بقوله بلسان حاله ومقاله : أنا النذير العريان ﷺ وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا مقاصد الشريعة فحصلوها ، وأسسوا قواعدها وأصلوها ، وجالت أفكارهم في آياتها ، وأعملوا الجد في تحقيق مباديها وغاياتها ، وعنوا بعد ذلك باطراح الآمال ، وشفعوا العلم بإصلاح الأعمال ، وسابقوا إلى الخيرات فسبقوا ، وسارعوا إلى الصالحات فما لحقوا ، إلى أن طلع في آفاق بصائرهم شمس الفرقان ، وأشرق في قلوبهم نور

الإيقان ، فظهرت ينابيع الحكم منها على اللسان ، فهم أهل الإسلام والإيمان والإحسان ، وكيف لا وقد كانوا أول من قرع ذلك الباب ، فصاروا خاصة الخاصة ، ولباب اللباب ، ونجوما يهتدي بأنوارهم أولو الألباب ﷺ وعن الذين خلفوهم قدوة للمقتدين ، وأسوة للمهتدين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن المتبحر في علوم الشريعة يقطع بأن (علم أصول الفقه) هو أعظم علم أنتجته العقلية العربية المسلمة ؛ بل وغير المسلمة ؛ إذ به يفهم مراد الله ـ عز وجل ـ ومراد رسوله ﷺ وبه تعرف الأحكام الشرعية، ؛ ولقد اهتم هذا العلم اهتماما بالغا بكثير من القضايا اللغوية ، وأولى (النص) عناية خاصة ، حتى حق لنا أن نقضي بأن هذا العلم يعد علما للنص في المقام الأول ؛ هذا وقد انبثق في سبعينيات القرن العشرين مصطلح (نحو النص) textgrammar محددًا لنفسه عدة أهداف ، يأتي على رأسها الوصف والدراسة اللغوية للأبنية النصية ، وتحليل المظاهر المتنوعة لأشكال الاتصال النصي. ويهتم هذا الاتجاه اللغوي الجديد بأركان علمية الاتصال اللغوي في (المرسل ، والنص ، والمتلقي) وذلك بالاستفادة من معطيات كثير من العلوم مثل: علم الذكاء الاصطناعي ، وعلم النفس المعرفي ، وعلم الاجتماع .

وقد ظهرت نظرية المقصدية في سياق الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص ، وينصب اهتمامها على أركان عملية التواصل اللغوي وهي: المرسل، والنص ، والمتلقي .

فأما المرسل فإنه ـ في بعض المواقف ـ يلجأ إلى إيضاح مقصده للمخاطَب، وذلك بأن يعبر عن مقصده تعبيرًا مباشرًا ، وأحيانًا يلجأ إلى إخفاء مقصده ؛ لأسباب يأتي ذكرها في هذا البحث ـ إن شاء الله ـ .

وأما النص فإن ألفاظه قد تحمل أكثر من معنى وأكثر من مدلول ، ولا يعرف المعنى المراد إلا بقرائن داخلية (من النص نفسه) أو بقرائن خارجية ؛ كحال المتكلم ، وسبب الكلام ، والعرف ، وغير ذلك .

وأما المتلقي فقد يدرك المعنى المراد ، وقد لا يتسنى له ذلك ، إما بسبب من النص ، وإما لقصور في فهمه ، وإما لعدم علمه بما يعين على فهم النص ، وإن درجات المتلقين في فهم النصوص تختلف ـ على حسب ذلك ـ اختلافًا كبيرًا .

وتعد نظرية المقصدية intentionality أحد معايير النص textuality وترمي هذه النظرية إلى الكشف عن معرفة العلاقة بين لفظ المتكلم أو منشئ النص والمقصد الذي يرمي إليه ، وذلك لأن الألفاظ قد لا تتطابق مع المقاصد ، بل قد يكون اللفظ مخالفًا للقصد ، وقد يعرض للمتكلم ما يلغي قصده إلى القول فتصبح أقواله هدرًا لا اعتبار بها.

ولقد تناول روبرت ديبوجراند robert de beaugrande وولفجانج دريسلر wolfgang dresler في دراسة لهما سبعة معايير رأيا أن النص لا تكتمل نصيته إلا بها وهي : الاتساق cohesion ، والانسجام coherence ، والقصدية intentionality ، والتقبلية accaptability ، والموقفية intertextuality ، والإعلامية informativity ، والتناص ulity intertextu ، وكذلك تناول ديبوجراند في كتابه (النص والخطاب والإجراء) تعريفًا للقصدية ، وذكر أن للسبك

والحبك دورًا في بيان مقصد منشئ النص ، ونبه إلى أنه قد يقع بعض التغاضي في هذين المعيارين مع بقاء وضوح المقصد .

وهناك دراسات عربية معاصرة تناولت في نظرية (القصدية) ضمن معايير النص السبعة التي ذكرها كل من روبرت ديبوجراند robert de beaugrande وولفجانج دريسلر wolfgang dresler ، ومن هذه الدراسات :

١ - علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (الخطابة النبوية نموذجًا) للأستاذة الدكتورة نادية رمضان النجار ، دار غريب ، مجلة علوم اللغة ، ع٢ ، ٢٠٠٦م .

٢ - نظرية جون سيرل في القصدية دراسة في فلسفة العقل ، للدكتور صلاح إسماعيل ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت .

٣ - (مدخل إلى علم لغة النص ـ تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند ودريسلر) تأليف : إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد .

٤ - (نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري) تأليف/ حسام أحمد فرج .

٥ - (نحو النص ـ دراسة تطبيقية لمفاهيم علم النص في قصة موسى عليه السلام في النص القرآني) رسالة دكتوراه ، تأليف : محمد أحمد دسوقي ، كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ، سنة المنح ٢٠٠٧م .

٦ - (نحو النص ـ اتجاه جديد في الدرس النحوي) للدكتور/ أحمد عفيفي ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ، مكتبة زهراء الشرق ـ القاهرة .

ولكن كل هذه الدراسات التي ذكرت وغيرها مما لم أذكر لم توف هذا الموضوع حقه ، وإن الذي قدمته ما هو إلا نتف قليلة ، شاب بعضها غموض، ووقع في بعضها لبس وخلط ، وعلى أية حال فليست هناك دراسة واحدة ـ فيما وقعت عليه يدي ـ قدمت رؤية متكاملة لهذا الموضوع .

وأما ما يتعلق بالمصادر الإسلامية التراثية فإنها قد أولت موضوع القصد اهتمامًا بالغًا خاصة المؤلفات التي صنفت في أصول الفقه ، ومن ذلك : « إعلام الموقعين » لابن القيم ، و« كشف الأسرار » للبخاري ، و« الموافقات » للشاطبي ؛ إلا أن ذلك جاء منثورًا في كتبهم لا ينتظم في سلك واحد ، وهذا الكتاب يعد محاولة لجمع هذا المنثور ؛ وذلك ليستبين لكل من يزعم أن الغربيين جاءوا بشيء جديد في علم اللغة النصي لم ينتبه إليه أوائلنا ؛ ليستبين لهؤلاء أن ما جاء به الغربيون في هذا العلم يحق لنا أن نقول عنه : (هذه بضاعتنا ردت إلينا) .

هذا، ومن الله تعالى أستمد الصواب والتوفيق إلى ما يحظيني لديه بجزيل الثواب ، وإياه أسأل أن يعصم القلم من الخطأ والخطل والفهم من الزيغ والزلل ، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول .

□□□